المقياس الأساطير الأدبية ----------السنة الثانية ماستر : تخصص أدب عربي قديم

عنوان المحاضرة : التفكير الأسطوري الجاهلي عند العرب ما قبل الإسلام

الكلمات المفتاحية : التفكير -الأسطورة – الجاهلية

المقدمة :

يعتبر موضوع الأساطير في فترة ما قبل الإسلام موضوع يحوطه الكثير من اللبس وذلك لقلة الدراسات حوله ولقلة الاهتمام بموضوع الأساطير كما هو الحال في عصرنا الحاضر لأن العرب قبل الاسلام كانوا يعيشون في جاهلية عظمى يعبدون الأصنام ويضعون الأوثان نصب اهتمامهم ومحور تدور حوله كل أفكارهم وفق اعتقادهم فيها بأنها الالهة التي لا يقدر على جبروتها أحد و الغاية من القاء الستار على هذه الفترة الزمنية الجاهلية من أجل أن يستنبط الباحث الحديث من أساطيرهم ما كان متعذرا عليهم أنفسهم؟

وحتى يكون البحث في السبيل الصواب ارتأينا في محاضرتنا هذه أن يسلك طريق المقارنة بين الأخبار التي رصدتها لنا كتب الأدب والتاريخ أو نقشت على الأحجار مع رصد الأخبار من مرجيعيتنا الثقافية والتاريخية والدينية عن شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام لكنها أخبار قليلة جدا وضعيفة و متناثرة وصلت عن طريق بعض الرواة الذين عايشوا فترة ما قبل الاسلام أيام الجاهلية اي نحو مائة سنة قبل ظهور الاسلام

وقبل هذا لابد من أن نقف على مصطلح الجاهلية التي اختلف الكثير من العلماء في تحديدها و ذهب المفسرون الى أن المراد من الجاهلية في قوله تعالى : **وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأول,** أن الجاهلية كانت بين نوح و إدريس وقيل كانت بين المرأة فيها تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين ، وتلبس الثياب الرقاق و لا تواري بدنها ، و في قول الحكم بن عيينة : أن الجاهلية كانت بين آدم و نوح ، وهي ثمانمائة سنة و قال الكلبي : إنما يراد بها عصر مابين نوح و ابراهيم ، و قيل إنها عبارة عن أيام الفترة ما بين موسى و عيسى

عليهما السلام ، ومابين عيسى ومحمد صلعم و عن ابن خالويه أن هذا اللفظ أطلق في الاسلام على الزمن الذي كان قبل البعثة ، و يرى الألوسي في بلوغ الأرب أنها أزمان كثر فيها الجهال ، والناظر الى هذه الاختلافات يرى أن جلها يصب في معنى واحد وهو زمن الكفر كما قال نبي الله محمد صلعم لأبي ذر : إنك امرؤ فيك جاهلية ، و هذا القول مؤكد عند جولدز يهر الذي أثبت أخيرا أن الجهل ضد الحلم لا ضد العلم ، فالشعراء الجاهليون كانو قد أرادوا بالجهل التوحش لا عدم المعرفة ، وكذلك المسلمون إذا ذكروا الجاهلية أرادوا بها العادات الوثنية فليس من المستطاع أن نحدد الجاهلية كعصر معين من عصور التاريخ المعينة لأنها ليست زمنا متصلا بعضه ببعض ، بل لها شعائرها و لها خصائص عبادتها التي تعبر بها عن شعور الأمة حسب دواعي البيئة

ما طبيعة الأدب القديم عند العرب الجاهليين وما سبب اندثاره؟

تعد الأدب القديم هو سجل الأمة العربية لكن لتضافر عوامل عدة أدت الى ضياعه لعدة أسباب أهمها :

-نعدام الكتابة عند العرب لكن نستثني من ذلك الأدب الالحادي الذي يوجد في الجاهلية الثانية أو قبيل الاسلام ، والذي ذكره القرآن الكريم و نظمه الشعراء القدماء في قصائدهم و دونه الكتاب ، كالذي يوجد في سيرة ابن هشام و الأغاني و مروج الذهب للمسعودي ، و الثعالبي و الألوسي و نحو ذلك فقد ساعدتنا الى الوصول الى معرفة عقلية الجاهلية الى حد بعيد و عامل الترجمة التي حرفت وزيفت من خلالها بعض الحقائق عن ما أوردته هذه الكتب فعدم الفهم الصحيح للغة العربية زاد الطينة بلة و أخرج المعاني عن نصابها حول عادات العرب وطبيعتهم

- تأثر حكاية عادات العرب لم تتأثر فقط بعامل الترجمة بل تأثرت بالمدينة المجاورة فكانت أفكار اليهود والنصارى قد أثر الى حد بعيد في فكرة الجاهلية وأثرت فيها تأثيرا كبيرا مما جعل أخبار العرب تصل إلينا مصبوغة بصبغة نصرانية ويهودية إلا القليل منه الذي حافظ على أصله

- أما المصادر الأخرى التي تتعلق بشبه الجزيرة العربية فتنحصر في أقوال المؤرخين اليونانيين مثل هيروديت أو في نقوش سامية أو يونانية بينت أسماء بعض الأوثان و لكنها تدل دلالة ما على سبب عبادة هذا الصنم أو ذاك

- ضياع خزائن الكتب القديمة وزالت على اثرها تلك الدراسات عن الآثار النفيسة التي غيبت واضمحلت قد تكون حتى بفعل فاعل لطمس هوية العرب أو بفعل العوامل الطبيعية,

- أما ماذكر من التاريخ القديم إلا نزرا ضئيلا يسيرا تحت الأطلال من طرف قلة قليلة من المؤرخين الذين كان لهم نخوة وأنفة لخدمة العلم و حبا في كرامة الدين الإسلامي لاضمحل وانطفأ نوره كذلك التغيير الحاصل في عاداتهم الأصلية من قبل الرواة لم تكن وحدها بل نتيجة للقوميات التي امتزجت مع قومية العرب مما أدى الى امتزاج التفكير وتطوره في تشكيل عقلية الأمة ويمكن التركيز على هذا الموضوع من خلال موضوع البداوة في الحجاز وقد نستمد كذلك الأساطير التي كانت موجودة في بلاد فلسطين وبابل و اليمن

وكذلك انعدام الحدود الفاصلة بين مختلف الشعوب ادى الى الامتزاج بين العادات المختلفة وظهور عادات جديدة مكتسبة للجاهلي

وبالتالي فان التفكير الجاهلي يجب أن يبنى أساسه لا على التاريخ وإنما يبنى على الأساطير التي نقلت من جيل الى جيل وذلك بمقارنة الرويات بعضها ببعض لنستخرج الأسطورة الأصلية وعلى أن تكون طبيعة المقارنة قائمة على اختيار حسب ما يتوافق مع عقلية الأمة العربية وسجيتها حيث تعتبر هذه الأساطير أحسن وسيلة لمعرفة المجهول من المعلوم و معرفة مدى بداوة أو تحضر العقلية العربية من حيث طريقة التفكير وماهي مراحل تطورها

أما الوجهة الثانية : فهي البحث في تلك المسائل من ناحية عقلية الأمة العربية وخيالها في ضوء بيئتها الطبيعية و الاجتماعية و ذلك لأن البحث في أساطير

الأولين هو بحث في التفكير و مناهج النظر البشري بمعنى يوضح لنا كيف شرع الانسان لاول مرة يفكر في نفسه ، وفي خالقه وفي الرابطة بينه وبين الموجودات ، معنوية كانت أو مادية وحتى نطلع على تاريخ تفكير العربي الجاهلي يجب أن نطلع على غرائز الأمة العربية و على ميولها و تأثرها بالظروف و الأحوال والسؤال المطروح ماذا **نريد بالتفكير الجاهلي ؟**

قابلية العقلية العربية لتوليد الأساطير :

هل هذه الأسطورة التي وضحنا معناها آنفا في دروس سابقة هل توجد بنفس معناها السابق عند العرب الجاهليين ؟و ليس السؤال أمامنا حول هل الأسطورة من حيث هي طور من أطوار ارتقاء التفكير موجودة عند العرب أم لا؟ و كما عرفنا فان الأسطورة من حيث هي طور من أطوار ارتقاء التفكير موجودة عند العرب أم لا ؟ فكما عرفنا فوجودها ثابت عند جميع الأمم بلا استثناء وبمعنى أخر هل كان لهذه الاساطير نظام كأنظمة الموجودة عند الأمم الأخرى من حيث عملها في حياة البشر؟ ولو كان كذلك فما كيفيته وما مقداره ؟

وحتى نقف عند هذا الموضوع لابد أن ندرس الأمة العربية في ضوء بيئتها و عقائدها الوراثية ، وكل مايحيط بها حتى نصل الى معرفة نظم الأساطير عندها وكيف هو حال التفكير العربي قبل الاسلام من العلم أن العربي يتميز بدقة البديهة والنظرة الثاقبة للاشياء وهو مايعرف بالقيافة عند العرب وقد اشتهرت بهذا عدة قبائل عربية كما العرافة والمقصود بها معرفة صفة الشخص من خلال أثر قدميه وهذه العرافة تطورت وأصبحت مرتبطة بالأصنام وهذه الأخيرة التي تبنى على الاستنباط من المحسوسات والعلامات

وحتى نجيب عن كل هذه الساؤلات أولا الأمر العربية لم تكن في عزلة عن الشعوب المتحضرة خاصة من الناحية الفكرية وأكد ذلك الدكتور أحمد أمين : **قائلا الحق أن هذه الفكرة كانت خاطئة و أن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم ماديا و أدبيا و إن كان هذا الاتصال أضعف مما كان بين الأمم المتحضرة لذلك العهد نظرا لموقعها الجغرافي و لحالتها الاجتماعية**

بمعنى ان العرب كانت متفقة فكريا مع من جاورها لكنها اختلفت عنهم اجتماعيا واقتصاديا لاختلاف طبيعة العيش بين حياة البداوة والمدينة مما جعل البدوي ضيق الفكر حتى وان اتفق مع جاره وهو الشئ الذي جعله يعتمد فقط على ما رآه بصره فقط اي يعتمد عالم المحسوسات وجتى يصل الانسان الى التفكير العميق عليه ان يتجاوز تلك النظرة البسيطة للأشياء مما جعل العربي يميل اكثر للماديات اكثر منه الى المعاني والروح مما جعل التفكير العربي قبل الاسلام يتميز بالتفكير التصوري حيث يتصور الأشياء و يسترجع التجارب الماضية فيركب منها صورا جديدة لكن بنفس الحلة لا يضيف عليها ابداعه الخيالي بل صور يشاهدها كل ذي عينن وكل هذا يرجع الى انعدام التمدن و الاختلاط وفي هذا نأخذ مثاللامرؤ القيس مشبها فرسا بحيوان مثلها :

له ايطلا ظبي و ساقا نعامة و ارخاء سرحان و تقريب تتفل السرحان هو الذئب و تتفل هي مشية الذئب بين المشي والجري

وخلاصة القول ان العربي في عقليته قليل الابتكار نتيجة خلو عقله من الخيال الاختراعي كما هو الحال عند اليونان والرومان لكن ذلك لم يمنعه من من أن يكون له مثل عليا في العادات و في تصور المحسوسات لكن خياله يعتمد التصوير الذي برع فيه الى حد بعيد و هو يقطع أشواط في مراحل نضج عقليته من ذاك العالم الحيوي ثم الطوطمي ثم تعدد الالهة فالأساطير العربية قبل الاسلام عند الجاهليين تولد تصوريا لأنهم تصوروا الأشياء و ركبوا صورهم الشعرية المادية المحسوسة فكانت افكارهم عن الاشياء الروحية ذات تصور مادي